مناسك الحج ودلالتها على تعظيم الله تعالى

The Rituals of Hajj and their Necessary Glorification of God Almighty

أ.د. عبد اللطيف تلوان،

أستاذ مؤهل بجامعة محمد الأول بوجدة- المغرب

Taleuan.077@gmail.com

تاريخ الإرسال 2020/09/30	تاريخ القبول 2020/10/25	تاريخ النشر2020/10/31

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى الرد على بعض الأصوات الشانئة، التي تريد النيل من ثوابت الأمة، وتستهدف بالخصوص مناسك الحج، فتعريها من التعظيم لله تعالى، وتلبسها وصفَ الوثنية، وتتهم الحجاج بتضييع المال في طقوس بائدة-حسب زعمهم-.

واعتمدت منهجا قائما على الوصف والتحليل؛ لتحرير خطة تنبني على مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة:

فأما المقدمة فأشرت فيها إلى إشكالية البحث، وأهميته، والمنهج المتبع في بنائه، وخطته، وأما المطلب الأول؛ فبينت فيه المنهج القرآني في التعامل مع منكري ربانية المناسك، والمطلب الثاني؛ ذكرت فيه جملة من أسرار مناسك الحج ودلالتها على التعظيم، والمطلب الثالث رددت فيه على بعض شبه المنكرين لدلالة المناسك على التعظيم الإلهي.

والخاتمة جعلتها حيزا لاختصار ما جاء في البحث، وتسجيل نتائجه، والآفاق المنبثقة عنه، مع ذكر التوصيات.

الكلمات المفاتيح:المناسك- الحج- التعظيم الإلهي.

Abstract :

This research paper seeks to respond to some of the vile voices that seek to undermine the principles of the *IslamicOumma*, and target, specifically, the rituals of Hajj by trying to strip them of their direct relation to the veneration of God Almighty, and who dress them up as idolatrous and accuse the pilgrims of wasting money in obsolete rituals – according to their claims -. The paper adopts an approach based on description and analysis in its drafting of a plan based on an introduction, three basic demands, and a conclusion:

As for the introduction, I state in it the research problem, its importance, the methodology used in building it, and its plan. Besides, I state and explain what the three basic conditions that help face the voices seeking to disinherit pilgrimage from its meaning and value are. 1. I explain the Qur'an approach in dealing with the deniers of divine rites 2. I mention a number of the secrets of the rituals of Hajj and their evidence of veneration 3. I respond to some quasi-deniers of divine glorification of the rituals. The conclusion is also a space in which I summarize what is stated in the research, presenting its results, and the prospects emanating from it. Finally, I present possible recommendations.

Key words: Rites - Hajj - Divine exaltation.

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد فيسعدني أن أشارك في هذا العدد من مجلة الرستمية العامرة بهذا الموضوع: "مناسك الحج ودلالتها على تعظيم الله تعالى".

الفكرة المحورية للبحث:

يناقش هذا البحث قضية محورية تتمثل في بيان فلسفة مناسك الحج الدالة على تعظيم الله تعالى، ردا على بعض مثيري الشبه حولها.

أهداف البحث:

- بيان الهدى القرآني في مناسك الحج من خلال سورة الحج.
- استنباط الأسرار الدالة على تعظيم الله تعالى من خلال المناسك.
- رد الشبه المتعلقة بمناسك الحج عند بعض المشككين ببيان دلالة هذه المناسك على تعظيم الله تعالى.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه سيجلي مسألة مهمة، ولاسيما في هذا العصر الذي ارتفعت فيه بعض الأصوات الشانئة، والتي تريد النيل من ثوابت الأمة، وتستهدف بالخصوص مناسك الحج، فتعريها من التعظيم لله تعالى، وتلبسها وصفَ الوثنية، وتتهم الحجاج بتضييع المال في طقوس بائدة- حسب زعمهم- لذا وجب الرد عليهم بالحكمة دعوةً لهم إلى الحق الذي وجب اتباعه، والهدي الذي لزم الاستمساك به فيما يخص الحج ومناسكه.

المنهجية العلمية المتبعة

اعتمدت منهجا قائما على الوصف والتحليل؛ لتحرير خطة تنبني على مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة:

فأما **المقدمة** فأشرت فيها إلى إشكالية البحث، وأهميته، والمنهج المتبع في بنائه، وخطته، وأما **المطلب الأول**؛ فبينت فيه المنهج القرآني في التعامل مع منكري ربانية المناسك، **والمطلب الثاني**؛ ذكرت فيه جملة من أسرار مناسك الحج ودلالتها على التعظيم، **والمطلب الثالث** رددت فيه على بعض شبه المنكرين لدلالة المناسك على التعظيم الإلهي.

والخاتمة جعلتها حيزا لاختصار ما جاء في البحث، وتسجيل نتائجه، والآفاق المنبثقة عنه، مع ذكر التوصيات.

المطلب الأول: الهدي القرآني في التعامل مع منكري ربانية المناسك من خلال سورة الحج:

جاء في سورة الحج ما يدل على أن الله تعالى خلق الخلائق وجعلهم كلَّهم أهل سجود وتسبيح له، باستثناء الإنسان الذي ترك له الحرية في ذلك، فمنهم الساجد ومنهم المستكبر عن عبادته، وما جاء في ذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 18]

فمن سبح وشكر جوزي بالجزاء الأوفى، ومن طغى وتجبر حق عليه عذاب الدنيا بالعيشة الضنكة، وعذاب الآخرة الذي هو أشد وأبقى.

ومن أركان العبادة في الإسلام الحج إلى بيت الله الحرام، الذي أوجبه الله تعالى على كل من استطاع إليه سبيلا، وشُرع لأجل تحقيق مقصد عظيم وهو مقصد تعظيم الله تعالى. قال تعالى:﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: 24]، وإفراد الله تعالى بالعبودية والإخلاص في ذلك؛ تعظيمٌ لله تعالى.

وفي سورة الحج كثير من الهدايات القرآنية التي تبين لنا طريقة التعامل مع منكري التعظيم الإلهي من خلال مناسك الحج، الذين قال في شأنهم الله جل جلاله:﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 72]

وجاء التوجيه الرباني في شأن المجادلين في مناسك الحج ونسكه بالنهي عن الخصام معهم والدعوة إلى الله تعالى ببيان الهدايات المستنبطة من هذه النسك. قال تعالى:﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: 65-67]

والسبب في ذلك أنهم يجادلون في الله بغير علم ولا هدى؛ لأنهم عمدوا إلى المقارنة العارية عن الدليل والحجة؛ ذلك بأنهم شبهوا بعض مناسك الحج بعادات وطقوس كانت في الجاهلية، وعند اليهودية والنصرانية وتلك مقارنة غير واقعية، وليست منصفة. قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: 3-4]وقال سبحانه:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:8-9]

وجعل سبحانه الاستهانة بهذه النسك انتهاكا لحرماته سبحانه، وضربا في التعظيم الخاص به جل جلاله. قال تعالى:﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: 18]

ومن يردد هذه الأفكار من المنكرين ومقلدتهم فإنه يعتبر صادا عن سبيل الله وعن المسجد الحرام. قال سبحانه:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: 23]، وهذا التكذيب سنة الله في خلقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. قال تعالى:﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ

لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: 40-42]وقال تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[الحج: 53]وقال سبحانه:﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج: 70]وقال في تأكيد مصير هؤلاء في الأخرى:﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [الحج: 49]

ولو تفكر هؤلاء وراجعوا أهل التخصص واستعملوا عقولهم لما عميت أبصارهم عن إدراك الحقيقة، واتباع المنهج السديد. قال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:44]

وقد اقتضت سنة التدافع أن ينصر الله عباده المعظمين لحرماته فقال جل من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 36]وقال سبحانه:﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 38]
فهذه الآيات البينات من سورة الحج التي وردت في سياق الحديث عن مناسك الحج، جاءت لتحفز المؤمنين على الثبات والتشبث بحرمات الله تعالى وتعظيمها، وعدم الالتفات إلى المكذبين والمنكرين، الذين اتبعوا شبهاً عقلية وحسية صرفتهم عن رؤية الحق، وحجبتهم عن أنوار المعرفة، وأسرار الحكمة الإلهية في تشريع مناسك الحج.

المطلب الثاني: جملة من أسرار مناسك الحج ودلالتها على التعظيم الإلهي.

إن " الحج موجود في كل أمة لا بد لهم من موضع يتبركون به لما رأوا من ظهور آيات الله فيه، ومن قرابين وهيآت مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها بها؛ لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه. قال تعالى:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.[الحج: 32]

وأحق ما يحج إليه بيت الله، "فيه آيات بينات، بناه إبراهيم صلوات الله عليه المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الأمم بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الأرض قفْراً وعرا، إذ ليس غيره محجوج إلا وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له."[1]

وحقيقة الحج "اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، ومكان فيه آيات بينات، قد قصده جماعات من أئمة الدين معظمين لشعائر الله ومتضرعين راغبين وراجين من الله الخير وتكفير الخطايا، فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة"[2].

"والحج عندنا اجتماع عظيم ومؤتمر سنوي، ومثلُه صلاة الجمعة، وهي المؤتمر الصغير الذي نلتقى فيه كل أسبوع."[3]

و"في أيام الحج صور وعظات، وعبر وآيات، واكتساب علم وخبرات، وحصول منافع ودفع سيئات، ودوام ذكر وعبرات"[4]. قال تعالى:﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[الحج: 31]وقال سبحانه:﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.[الحج: 26]"فأطلق المنافع ونكرها وأبهمها ودلّ هذا التعبير البليغ على كثرتها وتنوعها وتجددها في كل زمان، وأنها أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والاستقصاء."[5]

[1]- ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، تحقيق: السيد سابق، دار الجيل، بيروت، ط:1، 1426 هـ/ 2005م، 141/1.

[2]- نفسه.

[3]- مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد، دار العودة، ط1، 1986، ص: 84.

[4]- محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، منسك الحج، تحقيق: بندر بن نافع العبدلي، دار الوطن للنشر، ط:1، 1423هـ-2002م ص: 04

[5]- الإيضاح في مناسك الحج والعمرة، ص: 40.

والحاج "يتردد بين مكة ومنى وعرفات والمزدلفة، يقيم ويرحل، ولا إرادة له ولا اختيار، فيكون ذلك تطبيعا له على طاعة ربه في كافة أحواله."[6]

وتحدث علماء الإسلام كثيرا عن أسرار مناسك الحج، وعن دلائلها على التعظيم، ولعل أبرزهم أبا حامد الغزالي، وابن القيم، وولي الله الدهلوي، وعبد الفتاح طبارة، ومصطفى محمود وغيرهم، وما جاء في ذلك على وجه الإيجاز لا الإطناب:

دلالة السعي إلى بيت الله الحرام على تعظيم الله تعالى:

إن الحاج يضحي" بأعز شيء في سبيل مرضاة الله، وإظهار مدى امتثال عباد الله المخلصين لأمر ربهم".[7]فقد دلت وقائع وقصص كثيرة عن بيع كثير من الحجاج كل ما يملكون لأجل الظفر بهذه الرحلة العظيمة، وبعضهم خاطر بحياته في هذا السبيل، وما دفعهم إلى ذلك إلا الشوق إلى بيت الله الحرام، الناتج عن الشوق إلى لقاء الله تعالى. يقول أبو حامد الغزالي:"الشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالأحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل".[8]ولكي تتحقق معاني هذا الشوق ينبهنا الإمام أبو حامد إلى ضرورة الوعي بحقيقة هذا البيت العتيق. فيقول: "وأما الشوق فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك."[9] فإنه إذا رآه الحاج ذكر الله تعالى "كما يذكر الملزوم اللازم، لا سيما عند التزام هيآت تعظيمه وقيود وحدود تنبه

[6]- عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، بيروت: دار العلم للملايين، ط2003/33م، ص:210.

[7]-عفيف عبد الفتاح طبارة، تعلم كيف تحج؟ مناسك الحج والعمرة على المذاهب الأربعة، بروت: دار العلم للملايين، ط2004/3م، ص:121

[8]- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، 267/1.

[9]- نفسه، 266/1.

النفس تنبيها عظيما.وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجد إلا الحج"[10].

دلالة الإحرام على تعظيم الله تعالى:

إن الإحرام هو الركن الأول في الحج، وهو المُدخل إلى مناسك الحج، ويتطلب لباسا معينا غير محيط ولا مخيط، ومن دلالة الإحرام على تعظيم الله تعالى أن الحج يقصد به "إقامة البرهان على صدق النية والتوجه إلى الله تعالى بالكلية وبالمشاعر."[11]أما ثوب الإحرام فدلالته على التعظيم تتمثل في كونه رمزا " للخروج من زينة الدنيا وللتجرد التام أمام حضرة الخالق تماماً كما نأتي إلى الدنيا في لفة، ونخرج من الدنيا في لفة وندخل القبر في لفة. ألا تشترطون أنتم لبس البدل الرسمية لمقابلة الملك؟

ونحن نقول: إنه لا شيء يليق بجلالة الله إلا التجرد وخلع جميع الزينة؛ لأنه أعظم من جميع الملوك، ولأنه لا يصلح في الوقفة أمامه إلا التواضع التام والتجرد، ولأن هذا الثوب البسيط الذى يلبسه الغنى والفقير والمليونير أمام الله فيه معنى آخر للأخوة رغم تفاوت المراتب والثروات."[12]

دلالة النظر إلى الكعبة المشرفة على تعظيم الله تعالى:

النظر إلى الكعبة المشرفة مندوب إليه شرعا، وعمل من أعمال الحج والعمرة، يراد به أن يحضر عنده الحاج " عظمة البيت في القلب، ويقدِّر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه "[13].

[10]- الدهلوي، حجة الله البالغة، تحقيق: السيد سابق، دار الجيل، بيروت، ط:1، 1426 هـ/ 2005م، 141/1.

[11]- تعلم كيف تحج؟ ص:118-119.

[12]- حوار مع صديقي الملحد، ص: 84.

[13]- إحياء علوم الدين، 269/1.

دلالة التواجد برحاب البيت العتيق على تعظيم الله تعالى:

يجتمع الحجاج في صحن الكعبة للطواف أو الصلاة أو الذكر، "وفي رحاب البيت قبلة الجميع تكون النفوس أكثر استعداداً لاستشعار معاني الأخوة والتعاون فيصبحون بهذا الاجتماع وبهذا التعارف إخوة متآلفي القلوب متحدي الكلمة، متضامنين حساً ومعنىً متمسكين بحبل الله. فما أجمل هذا الموسم الروحاني وما أعظم ذلك العيد الرباني يلتقي فيه زعماء المسلمين وساستهم، ويتبادلون فيه أسباب الإصلاح، فيعرف كل منهم ما في بلاد أخيه من التجارة والصناعة والزراعة والفوائد المستحسنة فيقتبس بعضهم من بعض هذه المنافع ويتبادلون تلك المصالح ويرسمون فيه الخطط الرشيدة والوسائل الحكيمة لتكون كلمة الله هي العليا وطريقة المسلمين هي المثلى، وليكون المؤمنون جماعة واحدة في مشارق الأرض ومغاربها، تعمل تحت راية القرآن لتأييد السلام والعدالة في العالم، فالحج مؤتمر إسلامي جليل ومجتمع للقادة حافل في مهبط وحي السماء على أساس من النور الإلهي والهدي المحمدي."[14]

دلالة الطواف على تعظيم الله تعالى:

قال تعالى:﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[الحج: 27]

فالطواف في حقيقته: "تعبير عملي عن محبة الله والتعلق الشديد به."[15] وهو دال على التعظيم من كون الحاج يلبي هذا النسك عبودية ورقا وإن لم يدرك معقوليته، فيظهر بهذا الطواف محبته لله تعالى و"بكل ما له صلة بمحبوبه، والكعبة هي بيت الله، وقد أضافها الله إليه تشريفا في القرآن."[16] يقول أبو حامد الغزالي معلما الحاج كيفية تعظيم الله تعالى عند الطواف:"أما الطواف بالبيت فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من

[14] - الإيضاح في مناسك الحج والعمرة، ص: 39.
[15] - تعلم كيف تحج؟ ص:116.
[16] - روح الدين الإسلامي، ص:205

التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة واعلم أنك بالطواف متشبه بِالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الْحَافِّينَ حَوْلَ الْعَرْشِ الطَّائِفِينَ حَوْلَهُ ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدئ الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدئ الطواف من البيت وتختم بالبيت.

واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب"[17]

دلالة السعي بين الصفا والمروة على تعظيم الله تعالى:

إن السعي بين الصفا والمروة إقرار بالعبودية لله وحده والطاعة والإخلاص له وحده، وتذكير بالرحمة الإلهية التي أنقذت سيدنا إسماعيل من الموت نتيجة الظمأ الشديد، وكيف استجاب الله تعالى لأمه هاجر التي سعت بين الصفا والمروة سبعة أشواط جيئة وذهابا حتى تفجر بئر زمزم، وظل منذ لك الحين منبعا لا ينضب أبدا. يقول عبد الفتاح طبارة: "في السعي بين الصفا والمروة لجوء إلى الله في كشف الضر، وغفران الذنوب؛ لأنه في ذلك الموضع كشف الضر عن هاجر وولدها إسماعيل."[18]

دلالة الوقوف بعرفة على تعظيم الله تعالى:

إذا ما تزكت نفس الحاج بالمناسك السابقة تذهب إلى عرفات "فيفيض الله سبحانه عليها نورا يعرفها به، فتعرف عليه، فتلجأ إليه في ضراعة وابتهال بدموع سخية يغفر لها ما سلف، ويدخلها في زمرة عباده الصالحين."[19]

[17] - إحياء علوم الدين، 269/1.
[18] - روح الدين الإسلامي، ص:206
[19] - تعلم كيف تحج؟ ص:118-119.

ويعلمنا أبو حامد الغزالي كيفية استحضار تعظيم الله تعالى عند هذا الركن العظيم من أركان الحج بقوله: "أما الوقوف بعرفة فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات وباختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيرا بسيرهم عرصات القيامة، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيها، وطمعهم في شفاعتهم، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين، وحقق رجاءك بالإجابة، فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض."[20]

ذلك بأن الوقوف بعرفة ليس وقوفا طقوسيا تقليديا وإنما هو وقوف لإصلاح النفس "والخروج من الماضي المشوب بالإثم عن طريق التوبة، وتجديد العهد مع الله في استئناف حياة نظيفة، والخلاص من كل العقد النفسية التي تسببها الخطايا."[21]

وفي اجتماع الحجاج قاطبة على صعيد عرفات يشعر الحاج بحياة قلبه من جديد، ففي هذا الجو المهيب، المفعم بالتعظيم الإلهي حيث يرتفع "الدعاء والذكر والاستغفار والتوبة والتلبية، ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة، ويحرك الهمم الفاترة وينبه النفوس الخامدة، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت أو كادت تنطفئ، ويجلب رحمة الله تعالى، ويكفر الخطايا، فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة."[22]

دلالة رمي الجمار على تعظيم الله تعالى:

إن رمي الجمار من أعظم الدلائل على انقياد الحاج بالكلية إلى أمر الله تعالى، وهو " تمثيل لقصة الشيطان مع إبراهيم حيث رجمه بالحصى في الأماكن التي فيها الجمرات

[20]- إحياء علوم الدين، 270/1.
[21]- روح الدين الإسلامي، ص:208
[22]- الإيضاح في مناسك الحج والعمرة، النووي، ص: 36.

الثلاث عندما أراد الشيطان أن يغويه ويصرفه عن أمر ربه، فجعل الإسلام هذا العمل يتكرر كل عام إثارة لبغض الشيطان، وإظهارا للتمرد عليه وعصيانه، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بحماس وعاطفة إذا صح فيه الإيمان، فيدرك أنه دائم العداوة مع إبليس وما يمثله من قوى الشر."[23]

وقد جعل الله تعالى هذا الرمي محسوسا لدفع نزغ الشيطان بعدم الامتثال، فعند إرغامه على ذلك يتحقق تعظيم الله تعالى في النفس. يقول الغزالي: "اعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان، وتقصم به ظهره؛ إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى، تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه".[24]

ولهذا قيل إن من علامة المراقبة "إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله."[25]

دلالة ذبح الهدي على تعظيم الله تعالى:

قال تعالى" ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ **[الحج:34-35]**

[23]- تعلم كيف تحج؟ ص:120

[24]- إحياء علوم الدين، 269/1.

[25]- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تح: محمد المعتصم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3/1416هـ، 66/2.

بينت الآيتان المقصد من هذا النسك، المتمثل في: تعظيم الله تعالى، وشكره، والإنفاق منها في سبيل الله تعالى، فهي تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال الكلي لله تعالى.[26]

هكذا يلبي الحجاج نداء الله تعالى بأذان إبراهيم عليه السلام، قاصدين بأداء المناسك تعظيم الله تعالى، والوقوف عند حدوده، قال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: 25-26]

فهاتان الآيتان بينتنا الحكمة من تشريع الحج، والمتمثلة في شهود منافع أخروية ودنيوية. وهذه المنافع يستحسن من الحجاج التعرف إليها والتفقه فيها قبل الذهاب إليه؛ لأن "العاقل كلما اكتشف محاسن أي شيء وأسراره، جن شوقه إليه، وتضاعفت رغباته فيه، وامتزج حبه له بدمائه وسائر جسده، وتحمل في سبيله ما لا يستطيع غيره أن يتحمله."[27]

هكذا ففي كل مظهر من مظاهر الحج وفي كل مجال من مجالاته، "تتجلى فيه العبودية لله ويظهر أثرها بارزاً ملحوظاً، ففي أداء الشعائر والتلبس بالطاعات من تجرد عن الثياب وحسر عن الرؤوس، وفي الطواف بالبيت واستلام أركانه، وفي موقف عرفات ومزدلفة ومنى في ذل وخضوع وتضرع وخشوع، وفي رمي الجمار والذبح أو النحر وما إليه في جميع ذلك مظهر العبودية لرب العباد وبارئهم، وإفراد له بالعبادة وحده دون سواه، تلك العبودية هي سر علة الوجود وهدفه الأسمى"[28].

---

[26]- ينظر: إحياء علوم الدين، 270/1.

[27]- قدور الورطاسي، فقه المناسك على مذهب الإمام مالك، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1401/1هـ، 1980م، ص:10

[28]- عبد الفتاح حسين،الإفصاح على مسائل الإيضاح على مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم، دار البشائر الإسلامية، بيروت - المكتبة الأمدادية، مكة المكرمة، ط2، 1414 هـ - 1994 م، ص: 30.

وبهذا يكون الحج هجرة في سبيل الله، فمن قتل في سبيل هذا الطريق بمرض أو ازدحام أو حادث نال درجة المجاهد في سبيل الله. قال الله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: 56-57]

وما ذلك إلا لعلمهم بأن هذه الشعائر وهذه النسك حق من عند الله تعالى فزادتهم إيمانا وتوكلا على الله تعالى. وفي ذلك يقول ربنا جل وعلا: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: 52]

ويجازى الحاج المعظم لحرمات الله تعالى بالأجر الثابت في قوله تعالى:﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: 28-30]

المطلب الثالث دفع بعض الشبه المنكرة لدلالة المناسك على التعظيم الإلهي.

يثير الكثير من المشككين بالإسلام شبهات حول مراسم الحج ومناسكه معتبرين أنها من بقايا الوثنية ومخلفات الجاهلية، "وهذه الشكوك إنما تنبع من جهلهم بمناسك الحج وما ترمز إليه هذه العبادة من معان وأهداف سامية لا تمت إلى الوثنية بصلة، ولا إلى الجاهلية بسبب."[29] وتلك المعاني هي التي تحدثت عن بعضها في المطلب الثاني.

ومن الشبهات التي أثارها بعض المستشرقين حيال خلو مناسك الحج من التعظيم الإلهي ما يلي:

[29]- حسن شحادة، مناسك الحج وهل هي وثنية؟ الدار الإسلامية، د. ت، ص: 61.

- **مناسك الحج عادة قديمة عند العرب:**

يقولالمستشرق **فير** "ولكنه [محمداً صلى الله عليه وسلم] وجد الحج إلى الأماكن المقدسة متأصّلاً في نفوس العرب لا يستطيع له دفعاً. وكان قصاراه ألّاّ يُبقي من بيوت العبادة إلاّ على بيت واحد جعله بيت الله الواحد."[30]

- **مناسك الحج عادة وثنية ألفت على مساق التوحيد:**

يقول الهولندي **فِنْسِنْك**: "لم تكن نظرة النبي إلى الحج واحدة على الدوام، فلابد أنه اشترك كثيراً في مناسكه وهو حَدِث، أمّا بعد دعوته فقد كانت عنايته قليلة أول الأمر بالحج. فلم يرد ذكر الحج في السور القديمة. ولا يبدو من المصادر الأُخرى أن النبي اتخذ خطة محددة حيال هذه العادة الوثنية الأصل."[31]

- **مناسك الحج أثر لفكرة جاهلية:**

يقول فنسنك: "إن الوقوف في سهل عرفات من أهم مناسك الحج، فالحج بدون الوقوف باطل في الإسلام، وإنما يفسّر هذا الأمر بأنه أثر لفكرة جاهلية." [32]

وردا على هذه الشبهات يتبين أن القوم في الحقيقة ينكرون الأصل التشريعي للحج ومناسكه ويحاوله ربطه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه استمده من عادة وثنية، فليس ثمة تعظيم لله تعالى بل تعظيم للحجر في جميع المناسك (الطواف حول الكعبة الذي يعتبرونه مكعبا حجريا، وتقبيل الحجر الأسود يقارنونه بتقبيل العرب لأصنامهم، والسعي بين الصفا والمروة إنما يكون من حجر إلى حجر، والوقوف بعرفة يتم على صعيد جبل مقدس وهو حجر، وترمى الجمرات إلى معلم حجري..)، هذه الأعمال الظاهرة شبهها المستشرقون بأعمال وثنية، وأزالوا عنها صفة التعظيم لله تعالى، وهذه المقارنة قاصرة، ويعوزها الدليل. فليس ثمة وثنية على الإطلاق في كل ما ذكروه "فلا

[30]- وليد بن بلهش العمرى، السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص: 30.

[31]- نفسه، ص: 31.

[32]- نفسه.

القلوب متجهة إليها كونُها صخورا وحجارة، ولا النفوس تشد إليها لنفس السبب، وإنما استجابة لأمر الله تعالى. وهذه الرموز تبقى حية مع الإنسان حتى يفقهها ويعيشها فتشد قلبه، وتجذب نفسه إليها، فيتعلق بها ويهواها، وهل بعد ذلك نقول إنها وثنية؟"[33]

ثم إن المغزى من هذه المناسك ودلالتها على التعظيم الإلهي لا تدرك بالعقل بل تدرك بالإيمان والانقياد التام لله رب العالمين، وفي هذا **يقول أبو حامد الغزالي:** "فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنسَ فيها ولا اهتداءَ للعقل إلى معانيها (...) فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحج على الخصوص لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها، وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهُم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سَنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يُهتدي إلى معانيه أبلغُ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق. وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجُّب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدرُه الذهول عن أسرار التعبدات."[34]

ولقد أحسن مصطفى محمود الرد على صديقه الملحد في محور "هل مناسك الحج وثنية؟" بما يشفي الغليل في هذا الشأن فلتراجع هنالك[35].

[33]- مناسك الحج وهل هي وثنية؟، ص: 61.

[34]- إحياء علوم الدين، 266/1.

[35]- حوار مع صديقي الملحد، من ص: 81 إلى ص: 84.

خاتمة:

أخلص في نهاية هذا البحث إلى القول إن الإسلام قائم على فلسفة تشريعية هادية، وأن مناسك الحج تتضمن أسرارا تناولها العلماءُ في كتبهم، منهم أبو حامد الغزالي وابن القيم، وولي الله الدهلوي، وعبد الفتاح طبارة، ومصطفى محمود، وغيرهم من العلماء الذين اهتموا بمقاصد الشريعة وأسرارها فبينوا كثيرا من الحِكم وراء كل منسك من مناسك الحج ، سواء اتضحت أسرارُها أولم تتضح، وأن السبيل إلى هداية الناس ودعوتهم إلى بيان وجه تعظيم الله من هذه المناسك إنما يرتبط بالهدي القرآني، والقدرة على الجدال بالتي هي أحسن، فإن كان المسلم قادرا على دعوة المنكرين إلى الحق بالتماس الحكم والأسرار الظاهرة والباطنة، فبها ونعمت. وإن لم يكن قادرا على ذلك فلا ينبغي له الجدال، ولا يلتفت لدعاوي أولئك المبطلين، وليَنْته عنهم، ولا يتردد إلى نواديهم.

وأوصي الباحثين بضرورة الاهتمام بمثل هذه الموضوعات ردا على هذه الشبهات بالأدلة والأمثلة الواضحة، بإضفاء أمثلة واقعية عليها تزيد المناسك توضيحا وبيانا على تعظيم الله تعالى. والأمر يستوجب عناية علمية وعملية، لاسيما في عصرنا هذا حيث طفق بعض من بني جلدتنا يذكرون من حين إلى آخر أن الحج في الفقراء والمساكين أولى من الحج إلى بيت الله الحرام، وهذه دعوة وفكرة خطيرة تهدد هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، بفكرة ظاهرها الإحسان إلى الفقراء، وباطنها إبطال معلوم من الدين بالضرورة، ولكن كثيرا من الناس لا يعلمون، فوجب تفقيههُم في هذا الأمر، وبيانُ وجه بطلان تلك الدعوة، وأن الحاج أهذب الناس وأولاهم برعاية حقوق الفقراء والمساكين، والتصدق في سبيل الله تعالى.

لائحة المصادر والمراجع:

المصحف الشريف برواية ورش عن نافع.

- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تح: محمد المعتصم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3/1416هـ.
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت.
- حسن شحادة، مناسك الحج وهل هي وثنية؟، الدار الإسلامية، د. ت.
- عبد الفتاح حسين،الإفصاح على مسائل الإيضاح على مذاهب الأئمة، الأربعة وغيرهم دار البشائر الإسلامية، بيروت - المكتبة الأمدادية، مكة المكرمة، ط2، 1414 هـ - 1994 م.
- عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الد ين الإسلامي، بيروت: دار العلم للملايين، ط2003/33م.
- عفيف عبد الفتاح طبارة،تعلم كيف تحج؟ مناسك الحج والعمرة على المذاهب الأربعة، بروت: دار العلم للملايين، ط2004/3م.
- قدور الورطاسي، فقه المناسك على مذهب الإمام مالك، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1401/1هـ، 1980م.

- محمد بن عبد الوهاب، منسك الحج، تحقيق: بندر بن نافع العبدلي، دار الوطن للنشر، ط:1، 1423هـ-2002م .
- مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد، دار العودة، ط1، 1986.
- ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، تحقيق: السيد سابق، دار الجيل، بيروت، ط:1، 1426 هـ/ 2005م.
- وليد بن بلهش العمرى، السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.